75-960931

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية - المجلد السادس - العدد الاول ١٣٩٧ - ١٩٧٧

العلامة الأنصاري الهروي

بيئته الفكرية ومواردُه ومنهجه في كتابه «ذم الكلام»(*)

بقلم الدكتور

أكرم ضياء

لا شك ان تنوع الافكار والاتجاهات في الحضارة الاسلامية دليل على غنى الفكر الاسلامي وخصوبة الحياة الفكرية التي ولدها الاسلام حين احتضن الوانا عديدة في العقائد والفقه ، والانصاري يمثل الاتجاه السلفي الذي دعمه المحدثون بمادتهم الحديثية الواسعة وبمنهجهم في التصنيف الذي استقر على مر الايام وترسّمه الخلف عن السلف ، وهو منهج يتمثل في ترك الاحاديث والآثار تعبر عن افكارهم دون ان يتدخلوا كثيرا في التعليق والشرح معتمدين على تنظيم الاحاديث والآثار تحت عناوين دالة تعبر عن مقاصدهم ، وهذا المنهج يوضح مدى استيعابهم للمشاكل الفكرية التي واجهتهم ومدى قدرتهم على تخطيها دون اللجوء الى الجدل وعلم الكلام .

ولا شك انهم اهتموا بالمحافظة على الاسلام بنقاوته الاولى، ومن ثم فقد هاجموا بعنف المتكلمين والفلاسفة . اما موقفهم العنيف من مدرسة الراي فهو يعبر ايضا عن رغبتهم الشديدة في التزام السنة دون اللجوء الى القياس او الراي الا عند الضرورة القصوى . وهذا القدر الذي قبلوه يفسر موقفهم الحسن من مدرسة الامام الشافعي الفقهية وثنائهم علىمؤسسها، ويبدو ذلك واضحا عند الانصاري في مؤلفه (ذم الكلام واهله) حيث احسن الثناء على الشافعي واورد عنه ٢٧ رواية ، وكان الانصاري يقرن بين الامامين الشافعي واحمد بن حنبل فيإجوبته في الفقه ، فيوافق قول الشافعي تارة وقول احمد تارة اخرى وان كان الغالب عليه اتباع الحديث ـ كما يقول ابن تيمية ـ (١)

وكذلك فان موقف المحدثين ـ ومنهم الانصاري ـ حسن من الاوزاعي امام اهل الشام المعروف بانتصاره للسنة ومدرسة الحديث .

وقد اقتبس الانصاري عن الاوزاعي في ٢٠ موضعا من كتابه (ذم الكلام) كما اقتبس عن الامام مالك في ٦ مواضع واثنى عليه والقتبس عن الليث بن سعد فقيه المصريين ١٥ رواية ، ومعروف بالطبع ان مدرسة الليث قريبة من مدرسة الامام مالك من حيث الاهتمام بالنص وتقديمه على الراي والقياس .

ورغم استقرار الراي واكثار تلاميذ ابي حنيفة وخاصة محمد بن الحسن الشيباني من الاعتماد على الحديث ، فان الانطباع الذي ولدته المدرسة في بداية نشوئها في اذهان اسلاف المحدثين ـ المعاصرين لها ـ بسبب توسعها في القياس والراي استمر يؤثر على نظرة خلفهم الى هذه المدرسة وذلك ظاهر في ذهنية الانصاري التي تمثل نظرة المحدثين في القرن الخامس الهجري ، ولا شك ان قراءة خلف المحدثين لكتب اسلافهم يجعلهم يتاثرون باقوالهم ومواقفهم خاصة وانهم يحظون باحترامهم وتقديرهم الكبير بسبب وحدة المدرسة .

واذا كان النزاع بين مدرستي النص والراي قد اخذ هذه الابعاد ، فان الخلاف بين المحدثين الملتزمين بعقيدة السلف والاصوليين الآخرين الذين اعتمدوا على علم الكلام في بناء اصول الدين ، يبدو اوسع واعنف لاسباب تاريخية وموضوعية معا .

فقد بنى المعتزلة آراءهم في اصول الدين على العقل واستخدموا المنطق وعلم الكلام ، فغلبت النزعة العقلية على مباحثهم العقيدية . ورغم انهم لعبوا دورا ايجابيا في مقارعة عقائد المجوس واليهود والنصارى والزنادقة وغيرهم لكنهم صرفوا طاقاتهم العقلية في (الجدل) في نطاق (الميتافيزيقيا) فيما لا طائل تحته كما انهم اشغلوا الامة بـ (المحنة) التي اضرّت بالفقهاء والمحدثين حيث ضرب بعضهم بالسياط كالامام احمد بن حنبل ، ونفي آخرون عن العراق في زمن المأمون والمعتصم . والواقع ان الالتحام بين السلطة والمعتزلة زمن المأمون والمعتصم والواثق ادى الى موجة من الارهاب الفكري وخنق حرية الراي.

وقد يبدو ذلك متناقضا مع سعة افق المأمون وعمق ثقافته التي خلّفت ـ دون شك ـ من العنف مع خصوم المعتزلة ، لكن هذه الضوابط العلمية تحطمت في خلافة المعتصم الذي لم يكن متضلعا بالثقافة العقلية ، بل كانت قابلياته مكتسبة من احتكاكه المباشر برجالات البلاط العباسي من قادة وساسة وعلماء . حتى انه وصف بالأمية . ومن ثم كانت احداث العنف ضد مخالفي

(*) بحث قدمه المؤلف الى مهرجان الانصاري الهروي . في كابل بافغانستان في الفترة ما بين ٢٨ نيسان الى ٧ أيار ١٩٧٦ . وكان المؤلف ضمن الوفد العراقي (المورد) .

(١) سعيد الافغاني ـ شيخ الاسلام الانصاري ص٩٧ـ٩٨ .

المعتزلة نتيجة رغبة المعتصم في تنفيذ سياسة المامون التي تنتصر للمعتزلة ، واذا لاحظنا التاييد الواسع الذي كان يحظى به المحدثون ببغداد من جماهير الامة آنذاك ادركنا مدى الاثر الاليم الذي تركته سياسة السلطة في اضطهاد المحدثين والفقهاء . وهو اثر يمتد الى اجيال المحدثين التالية التي قرات اخبار المحنة او سمعتها .

ولا شك ان ذلك جعلها تعيش في اجواء نفسية مفعمةبكراهية المعتزلة ، فاذا اضفنا الى هذا العامل النفسي التناقض الواضح بين الاعتماد على النقل والالتزام بحدود النص الذي يمثل منزع المحدثين وبين المنهج العقلي للمعتزلة ادركنا الهوة التي تفصل بين المدرستين ومن الواضح ان النزعة العقلية استمرت بعد خفوت صوت المعتزلة في مدرستي الاشاعرة والماتريدية فكلتاهما زاوجت بين الالتزام بالنصوص والتقيد بالكتاب والسنة وبين النزعة العقلية التي صارت تنحصر في حدود (تاويل النصوص) تاويلا يبعد كل تصور يفضي الى التشبيه والتجسيم او النفي والتعطيل لكن شيخ الاسلام الانصاري ـ كمحدث ملتزم بمذهب الامام احمد بن حنبل في الاصول والفروع ـ لا يقر البحث في اصول الدين على اساس عقلي سواء كان البحث مطلقا او مقيدا بدائرة النصوص . فالنصوص ـ في رايه ـ تكفي لبيان اصول العقيدة ولا حاجة بعد ذلك للاستدلالات العقلية والادلة المنطقية لتدعيمها او شرحها ، فهو يرى اذا الاقتصار على ما ورد في الكتاب والسنة ، ومن هنا جاءت حملته العنيفة على المعتزلة والاشاعرة في كتابه (ذم الكلام واهله) .

وقد ساعد على تبلور اتجاهه ضدهم اتصال الانصاري بشيوخ عنيفين في موقفهم من « علم الكلام » مثل شيخه يحيى بن عمار الذي كان يرى ان علم الكلام علم يهلك به الدين(٢) ومنذ ايام شباب الانصاري تحدد موقفه من المتكلمين والاشاعرة فهو في الحادية والعشرين من عمره سنة ٤١٧هـ لم ياخذ الحديث عن القاضي ابي بكر الحيري لانه كان متكلما واشعريً المذهب رغم اعتراف الانصاري بان عند الحيري الاسانيد العالية في الاحاديث(٣) .

وقد قاطع الانصاري علماء آخرين كبار بسبب « الكلام » و « الاشعرية » مثل ابي محمد الجويني وابراهيم الاسفرائيني واسماعيل الصابوني فلم يحضر مجالسهم بنيسابور لتاثرهم بمذهب الاشعري ، بل انه قاطع مجالس الصوفي المشهور «ابي القاسم القشيري » بسبب اشعريته(٤) ولم يشفع له « تصوفه » عند الانصاري ، ومن ثم فان الانصاري كان يرى ان الكلام والاشعرية يقدحان في المحدث فامتنع عن الاخذ عنالمتكلمين والاشاعرة منذ ايام شبابه ، واستمر على سوء رايه فيهم ونقده لمناهجهم حتى اخر حياته ، وتجدر الاشارة هنا الى ان المحدثين لم يكونوا جميعا على راي الانصاري في الاشاعرة فقد كان محدث بغداد الجليل الخطيب البغدادي ـ وهو معاصر للانصاري ـ اشعريا . كما ان جهابذة المحدثين المتاخرين لم يكونوا راغبين في الخوض في الخلاف بين بعض اسلافهم والاشاعرة وكان ابن حجر العسقلاني يمنع تلاميذه من الرواية عن كتاب (ذم الكلام) لتعرضه لما وقع بين الائمة المتخالفين في المناظرات والمباحثات (٥) .

(٢) المصدر السابق ص٣١ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٨ .
(٤) المصدر السابق ص ٣٨ ، ٤٠ .
(٥) السخاوي ـ الاعلان ص٤٨٥ .

وقد الف الانصاري كتابه (ذم الكلام) في سنة ٤٥٦هـ ، وهي السنة التي تولى فيها الب ارسلان السلطنة السلجوقية وعهد بالوزارة الى نظام الملك الذي كان شافعيا اشعريا فانتصر للاشاعرة وبنى المدارس النظامية في بغداد والبصرة وبلخ ونيسابور وهراة واصبهان ومرو وآمل لتدريس فقه الشافعي واصول الاشعري ، ومن ثم فان مهاجمة الانصاري للاشاعرة والمعتزلة بعنف في كتابه (ذم الكلام) كان في عز سلطانهم وظهورهم، وكانت مهاجمتهم تحوطها الاخطار حيث كان للمعتزلة في القرن الخامس انصار كثيرون في بلخ وغورجة وغرجستان وطالكان ، كما كان للماتريدية انصارها في افغانستان وخراسان . وكان مذهب الامام الاشعري يبسط سلطانه كما اثرت بدعم من الوزير السلجوقي نظام الملك ، ومن ثم فقد تاثرت حياة الانصاري بمقارعته للاشاعرة والمعتزلة وجلب له ذلك المحن والمضايقات العديدة التي كان منها نفيه عن بلدته هراة مرتين بامر السلطة ، رغم ان انصاره بهراة كانوا كثيرين ايضا وقد ودعوه بحفاوة واستقبلوه عند عودته بحفاوة ايضا ، وكان ذلك تظاهرة امام نظر « السلطة » دعمت مكانة الانصاري وجعلت السلطة تتقرب اليه بالتكريم .

ورغم ان الانصاري ولد وعاش بهراة لكنه تاثر بالبيئة الفكرية في المشرق عامة فقد سافر الى نيسابور طلبا للعلم وهو في الحادية والعشرين من عمره سنة ٤١٧هـ وغادرها في نفس السنة . ثم مر بها سنة ٤٢٣ وسنة ٤٢٤ في طريقه للحج وغادرها سنة ٤٢٥هـ . كما انه نفي من هراة الى بلخ مرتين الاولى سنة ٤٥٨هـ حيث غادرها في نفس السنة والثانية سنة ٤٧٨هـ . وقد استقر برهة وجيزة في مرو الروذ سنة ٤٧٩هـ كما اخرج من هراة الى بوشنج سنة ٤٧٨هـ ، وزار الري في طريقه للحج سنة ٤٢٤هـ . ووصل الى بغداد سنة ٤٢٣هـ حيث مكث فيها برهة وجيزة وعاد الى هراة(٦) .

وقد ورد في كتاب زندكي خواجة عبدالله الانصاري الهروي انه استفاد ببغداد من المحدث الشهير ابي محمد الذي وصلت سنه الى واحد وسبعين عاما(٧) ، وتنطبق هذه الكنية ـ كما يتوافق العمر المذكور ـ على حافظ بغداد الامام الثقة ابي محمد الحسن بن محمد الخلال البغدادي (٣٥٢ـ٤٣٩هـ) صاحب كتاب (كرامات الاولياء) و (اخبار الثقلاء) و (الامالي) كما خرّج (المسند على الصحيحين) وهو معني بالرقائق واخبار الصوفية .

ولعله في هذه الرحلة دخل طوس حيث صرح بوجوده فيها في احد اسانيده(٨) . واذا كان الانصاري قد دخل هذه المدن واحتك بعلمائها ، فلا بد من التعريف ولو بايجاز بمكانتها في الحركة الفكرية في عصره .

ولا ريب ان الاهتمام بالحديث ودراسته كانت نشيطة في هراة منذ القرن الثالث الهجري حيث الف ابو اسحق احمد بن محمد بن ياسين الحداد الهروي المتوفى سنة ٣٣٤هـ (تاريخ هراة) للتعريف برجال الحديث من اهل هراة والقادمين اليها كما صنف معاصره ابو اسحق احمد بن محمد بن يونس في تاريخ هراة ايضا(٩) .

(٦) الافغاني ـ شيخ الاسلام الانصاري ص٣٧ـ٩٠ .
(٧) سعيد الافغاني : شيخ الاسلام الانصاري ص٤٦ .
(٨) ذم الكلام ق ٤٠ ب .
(٩) السبكي ـ طبقات الشافعية ٤/٨٥ .

اما نيسابور فقد وصفها السخاوي بانها « دار السنة والعوالي » وذكر عددا من اعلام محدثيها واشار الى كثرة الرحلة اليها واستمرارها حتى اكتسحها المغول(١٠) .

وقد برزت نيسابور كمركز من مراكز الحديث المهمة منذ القرن الثالث الهجري حيث بلغ عدد علمائها والواردين عليها خلال القرن الثالث ١١٣٥ عالما ترجم لهم الحاكم في (تاريخ نيسابور) (١١) وازداد عدد علمائها والواردين عليها خلال القرن الرابع الهجري حيث بلغ عددهم ١٣٧٥ عالما ترجم لهم الحاكم ايضا في تاريخ نيسابور . واستمر دورها يتعاظم في القرن الخامس الهجري حيث ذكر عبدالغافر في (السياق) (١٢) وهو ذيل على تاريخ نيسابور للحاكم ١٦٩٩ علما من علمائها والواردين عليها مما يدل على اضطراد نمو الحركة الفكرية فيها ، ويبدو انها كانت تنافس (بغداد) في علم الحديث خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين . بل ان نيسابور سبقت بغداد في انشاء المدارس الاولى في الاسلام حيث ذكرت المصادر اسماء بعضها وهي مدرسة ابي بكر احمد بن اسحق الصبغي (ت ٣٤٢هـ) المعروفة بدار السنة (١٣) .

ومدرسة الداري وهي دار للحديث انشاها ابو اسحق ابراهيم بن محمد الداري الرئيس البسطامي في الثلث الاول من القرن الرابع الهجري(١٤) .

ومدرسة القطان وهي مدرسة للمالكية كان يدرس فيها ابراهيم بن محمود بن حمزة الفقيه المالكي(١٥) .

ومدرسة ابي الوليد النيسابوري القرشي الاموي(١٦) (ت٣٤٩هـ) . ومدرسة السعدية التي انشاها الامير نصر بن سبكتكين اخو السلطان محمود الغزنوي عندما كان واليا على نيسابور (١٧) تولاها في حدود سنة ٣٨٩هـ(١٨) ، والمدرسة البيهقية التي اسست قبل سنة ٤٠٨هـ(١٩) .

ومدرسة محمد بن الحسن بن فورك (ت٤٠٦هـ) (٢٠) .

ومدرسة ابي اسحق الاسفرائيني (ت ٤١٨ هـ) (٢١) .

ومدرسة ابي بكر احمد بن محمد البستي(٢٢) (ت٤٢٩هـ) .

ومدرسة ابي سعد اسماعيل بن علي الاستراباذي (٢٣) احد شيوخ الخطيب البغدادي .

(١٠) الاعلان بالتوبيخ ٦٦٦ .
(١١) وصل الينا مختصر له ـ بالفارسية ـ وهو مطبوع ـ اما الاصل فهو مفقود .
(١٢) مشر فراي ما بقي منه مع مختصر تاريخ نيسابور للحاكم .
(١٣) السبكي ـ طبقات الشافعية ٤/١٥٩ .
(١٤) تاريخ نيسابور ق ٣٠ أ .
(١٥) المصدر السابق ق ١٩ أ .
(١٦) السبكي ـ طبقات ٣/٢٢٧ .
(١٧) المصدر السابق ٤/٣١٤ .
(١٨) حسن ابراهيم حسن ـ تاريخ الاسلام ٣/٨٨ .
(١٩) السبكي ـ طبقات ٥/١٦٩ ، ٣١٤ .
(٢٠) المصدر السابق ٤/١٢٨ .
(٢١) المصدر السابق ٤/٢٥٦ .
(٢٢) المصدر السابق ٤/٨٠ .
(٢٣) المصدر السابق ٤/٣١٤ .

ومدرسة ابي عثمان اسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني(٢٤).

ومدرسة القشيريين التي درس فيها ابو القاسم القشيري(٢٥) (ت ٤٦٥ هـ) .

والمدرسة النظامية التي انشاها الوزير نظام الملك سنة ٤٥٧هـ(٢٦) .

والمدرسة المشطبية التي درس فيها المبارك بن محمد الواسطي بن السوادي(٢٧) (ت ٤٩٢ هـ) .

ولا شك ان هذه المدارس الكثيرة التي انشئت بنيسابور لعبت دورا كبيرا في تنشيط الحركة الفكرية فيها حتى قصدها طلاب العلم من كل مكان ، وكان منهم شيخ الاسلام الانصاري .

اما مكانة بقية مدن المشرق التي زارها الانصاري في الحركة الفكرية فقد ترجم الخليلي في كتابه (الارشاد الى علماء البلاد) ـ وصل الينا مختصره للحافظ السلفي ـ لعدد حسن من علماء بلخ والري الذين عاشوا في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وقد اسست ببلخ احدى المدارس النظامية .

وكان بمرو الروذ مدرسة مرست التي حدّث بها ابو طاهر محمد بن علي بن بويه الزراد (توفى ابوه سنة ٤١٨هـ) ومدرسة اصحاب الشافعي التي درس فيها ابو المظفر منصور بن محمد بن السمعاني (ت ٤٨٩ هـ) وكان ببوشنج مدرسة ابن غاصرة الاسدي البغدادي (ت ٤٥٠هـ) بنيت له (٢٨) .

وقد زار الانصاري بغداد قاصدا الحج سنة ٤٢٣هـ ، ورغم تعذر استمراره الى مكة بسبب اضطراب الامن في طريق الحج الا انه لم ينتهز فرصة وجوده فيها للاتصال بعلمائها ، ولم يطل مكثه فيها رغم اهمية بغداد في القرن الخامس الهجري حيث برز فيها عدد من العلماء الذين كانوا يستحقون ان يقصدهم الانصاري في زيارته تلك مثل ابي بكر البرقاني (ت٤٢٥) مصنف كتاب (المسند المعلل) للدار قطني . وابي القاسم عبيدالله بن احمد الازهري (ت ٤٣٥ هـ) والخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) وغيرهم كثيرون (٢٩) .

وكانت الحركة الفكرية ببغداد مزدهرة يساعد على ذلك وجود المكتبات العامة والمدارس التي بلغ عددها في القرن الخامس الهجري تسع عشرة مدرسة توازعتها المذاهب الفقهية الثلاثة : الحنفي والشافعي والحنبلي ، فكان منها سبعة مدارس للحنابلة وهي مدرسة ابن ابي البقال (ت ٤٤٠هـ) ومدرسة مسجد سكة الخرقي ، ومدرسة مسجد القاضي ابي يعلى الفراء ، ومدرسة مسجد ابن زبيبا ، ومدرسة مسجد الشريف ابي جعفر ، ومدرسة مسجد درب الديوان ، ومدرسة ابن القواس(٣٠) .

واذا حاز الحنابلة هذا العدد من المدارس فان ذلك يعكس مدى قوتهم ونفوذهم ببغداد في عصر الانصاري . والواقع اننا لا نستطيع تعليل اهمال الانصاري الافادة من علماء بغداد الا اذا

(٢٤) المصدر السابق ٤/٢٩٠ ، ٢٩١ .
(٢٥) المصدر السابق ٥/١٥٩ ، ٢٧٧ .
(٢٦) المصدر السابق ٥/١٠٧ .
(٢٧) المصدر السابق ٥/٢١١ .
(٢٨) انظر عن هذه المدارس اكرم العمري ـ موارد الخطيب في تاريخ بغداد ص ٢٥ـ٢٦ .
(٢٩) المصدر السابق ص ٢١ .
(٣٠) المصدر السابق ص٢٢ـ٢٣ .

وضعنا نصب اعيننا ظروفه المادية القاسية في بداية حياته وطلبه العلم قبل ان يحوز شهرته الواسعة ، ثم انشغل بعد ذلك بالتدريس ومقارعة مخالفيه في هراة مما عرضه للمحن والنفي والايذاء .

وبعد هذه الالمامة الوجيزة بالبيئة الفكرية التي احتضنت الانصاري واثرت في بناء مادة كتابه (ذم الكلام) كما اثرت في وجهة الكتاب وموقفه من المدارس المختلفة في الفقه والعقائد ، انتقل الى استعراض موارده ومنهجه في كتاب (ذم الكلام واهله) .

١ ـ موارده في كتاب (ذم الكلام)

لم يصرّح الانصاري باسماء المؤلفات التي اعتمد عليها في بناء كتابه (ذم الكلام واهله) (٣١) ولا يعني ذلك (بالطبع) انه لم يستعمل النسخ والاجزاء والمصنفات المكتوبة وانه اقتصر على ما تلقاه من مفاريد الروايات عن الشيوخ الكثيرين الذين سمع منهم ، فقد كان منهج التصنيف في عصره يستند الى سلاسل الاسانيد دون الاهتمام بذكر اسماء المصنفات التي اقتبست منها المعلومات الا نادرا ، والانصاري بمنهجه هذا يشبه كثيرا الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد) وغيره من مصنفاته حيث انه قلما يصرح باسم الكتاب الذي ينقل منه رغم كثرة اعتماده على الكتب في بناء (تاريخ بغداد) . لكنه يمكن بمتابعة اسانيد الانصاري الى بعض المؤلفين وملاحظة وحدة اسانيد الى مصنف بعينه الكشف عن اسماء بعض الكتب التي من المحتمل ان الانصاري اقتبس منها .

ولا شك اني لن اقدم دراسة مسهبة وشاملة عن مصادر الانصاري في ذم الكلام لكنني ساحاول بيان مدى اعتماده على المصنفات من خلال بعض النماذج الاكثر وضوحا وفيما يلي اسماء بعض المؤلفين الذين ساق لهم الانصاري عددا من الروايات من المحتمل انها من احد مؤلفاتهم او من روايات مفردة وقعت للانصاري من سماعه لشيوخه وقد يكون بعضها ماخوذا عن مصادر مكتوبة ايضا ما دامت ترقى الى مصنف معروف كتب لمؤلفاته الذيوع والانتشار .

فمن هؤلاء المصنفين الذين نطالع اسماءهم في اسانيد كتاب (ذم الكلام) للانصاري :

١ ـ سعيد بن منصور البلخي (ت ٢٢٧هـ) صاحب كتاب السنن طبع منه مجلدان ، حيث نقل عنه الانصاري ٢٨ رواية ، وما عدا روايتين منها فان سائرها ترقى الى احمد ابن نجدة الذي سمعها من سعيد بن منصور مما يشير الى انها من نسخة او كتاب لسعيد بن منصور يرويه احمد بن نجدة .

٢ ـ الامام احمد بن حنبل (ت ٢٤٠ هـ) ـ

كان الانصاري على مذهب الامام احمد في الاصول والفروع فلا شك انه كان مطلعا على مؤلفاته لكنه لم ينقل عنها في (ذم الكلام) بل اورد عن الامام احمد ١٩ نصا باسانيده المختلفة اليه .

٣ ـ ابو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) ـ

وهو امام جليل صنف كتاب (الجامع) المعروف بسنن الترمذي وقد قراه الانصاري في ايام شبابه على شيخه عبدالجبار بن عبدالله بن ابي الجراح المرزباني واعجب به حتى قال بانه افيد من صحيحي البخاري ومسلم لانهما لا يصلان الى الفائدة المرجوة منهما الا من يكون من اهل المعرفة التامة . اما الترمذي فقد شرح الاحاديث وبينها فيستفيد منه كل واحد من الناس من الفقهاء والمحدثين وغيرهم(٣٢) وقد اقتبس الانصاري من الترمذي في ١٢ موضعا من طرق مختلفة لكن سبعة مواضع منها باسناد واحد يتكرر هو (ابنا (٣٣) محمد بن محمد ابنا محمد بن ابراهيم والحسين بن احمد قالا ابنا محمد بن محمد بن يحيى ثنا ابو عيسى الترمذي) وموضع واحد بواسطةشيخه الجراحي المتوفى عام ٤١٢هـ فهو من قديم سماع الانصاري. وفي ٣ مواضع بلفظ « قال الترمذي » مما يشير الى اقتباسه من الكتاب مباشرة . اما الموضع الآخر فمن طريق مغاير . وقد ذكر ابن حجر العسقلاني قراءته لمنتخبصغير من ذم الكلام يحتوي على ما فيه من جامع الترمذي (٣٤) مما يثبت ان نقول الانصاري هذه عن الترمذي هي من كتاب جامع الترمذي .

٤ ـ عثمان بن سعيد الدارمي السجستاني (ت ٢٨٠ هـ)

وهو محدث هراة له سؤالات عن الرجال ليحيى بن معين ومسند كبير وتصانيف في الرد على الجهمية ، وهو الذي قام على ابن كرام وطرده من هراة(٣٥) .

وقد اقتبس منه الانصاري ١١ نصا من طرق مختلفة لكن ٨ منها ترقى الى محمد بن اسحق القرشي ، وهي تتعلق في الغالب ـ بالرد على الجهمية فلعلها من احد مصنفات الدارمي في الرد عليهم ، ولكن يصعب القطع بذلك .

٥ ـ الحسن بن سفيان النسوي (ت ٣٣٠هـ)

صاحب (المسند الكبير) و (الاربعين) كان محدث خراسان في عصره ، صاحب رحلة ومصنفات ، وقد وصفه ابن حيان بصحة الديانة والصلابة في السنة(٣٦) .

وقد روى الانصاري عنه باسانيده المختلفة اليه ـ وغالبا بينهما اثنان من الرواة ـ في ٢٨ موضعا معظمها

---

(٣١) اعتمدت على نسخة كاملة من سبعة اجزاء ينقص منها الورقة الاولى فقط وهي محفوظة في دار الكتب الظاهرية برقم حديث ٣٣٧ تقع في ١٤٩ ورقة .

(٣٢) الافغاني ـ شيخ الاسلام ص٣٤ .

(٣٣) اي (اخبرنا) ولم يستحسن ابن الصلاح هذا الاختصار (الغزي ـ نص في ضبط الكتب وتصحيحها ، نشر محمد مرسى الخولي ، مجلة معهد المخطوطات ١٩٦٤م ص ١٨١) .

(٣٤) ابن حجر : المعجم المفهرس ق ١٨ ب .

(٣٥) الذهبي ـ تذكرة الحفاظ ـ ٦٢٢ . ومحمد بن كرام (ت ٢٥٥ هـ) صاحب مذهب الكرامية (د . علي سامي النشار ـ نشاة الفكر الفلسفي في الاسلام ٦٤٦/١ فما بعد . ولا شك ان الكرامية تدخل ضمن نطاق (اهل السنة) لكن منهجها الكلامي لا يقبله بعض المحدثين .

(٣٦) الذهبي ـ تذكرة الحفاظ . (لم يشر مؤلف البحث الى الصفحة ـ المورد) .

احاديث نبوية وقد ذكر مرة رواية عنه دون اسناد ولعله يشير بذلك الى وقوفه على نسخة مكتوبة .

٦ ـ ابو يحيى زكريا بن يحيى الساجي (ت ٣٠٧هـ)

قال عنه الذهبي (الامام الحافظ محدث البصرة ... عنه اخذ ابو الحسن الاشعري الاصولي تحرير مقالة اهل الحديث والسلف . وللساجي كتاب جليل في علل الحديث يدل على تبحره في هذا الفن(٣٧)) .

وللساجي مصنفات اخرى سمتها المصادر الاخرى منها (كتاب مناقب الشافعي) الذي كان عند الخطيب البغدادي نسخة منه(٣٨) .

وقد اورد الانصاري عن الساجي ٢٧ نصا منها ٢٠ نصا تتعلق بالامام الشافعي مما يرجح انها من كتاب (مناقب الشافعي) فهي رغم تعدد طرقها لكن معظمها (١٦ نصا) من رواية الانصاري عن شيخه محمد بن احمد الجارودي الحافظ . ومن الجدير بالذكر ان كتاب (ذم الكلام) يحتوي على اوسع النقول من كتاب (مناقب الشافعي) للساجي وهو يلي في ذلك (تاريخ بغداد) للخطيب الذي اقتبس ٢٢ نصا من هذا الكتاب(٣٩) .

٧ ـ محمد بن اسحق بن خزيمة النيسابوري (ت ٣١١ هـ)

قال عنه الذهبي (الحافظ الكبير امام الائمة شيخ الاسلام ... اكثر وجود وصنف ، وانتهت اليه الامامة والحفظ في عصره بخراسان ، ومصنفاته كما ذكر الحاكم في علوم الحديث تزيد على مائة واربعين مصنفا سوى المسائل المصنفة ـ مائة جزء ـ وفقه حديث بريرة ـ في ثلاثة اجزاء(٤٠)) .

وكان ابن خزيمة ينهى عن الكلام ويهاجم فرقة (الكلابية) (٤١) ، وقد صنف في العقائد ملتزما مذهب الامام احمد بن حنبل في الاصول . ورغم التقارب الفكري العميق بين آراء ابن خزيمة والانصاري فان الاخير لم يقتبس من كتب ابن خزيمة رغم قربها منه وتيسر الحصول عليها لاشتهارها في الآفاق فكيف في نيسابور بلدة ابن خزيمة التي زارها الانصاري . لكن الانصاري روى عن ابن خزيمة ٢٠ نصا من طرق مختلفة بعضها من املاء شيوخه عليه .

٨ ـ عبدالرحمن بن ابي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ)

وهو امام حافظ ناقد ، صنف في الفقه وعلم الرجال وعلوم الحديث الاخرى ، كما اهتم بموضوعات اصول الدين فالف فيها كتابين هما (كتاب السنة واعتقاد الدين) وهو اسئلة وجهها الى والده والى ابي زرعة(٤٢) .

وقد وصلت الينا منه (ورقات فقط(٤٣) . كما الف (كتاب الرد على الجهمية) وصفه الذهبي بانه كبير يدل على امامته(٤٤) .

وقد اورد له الانصاري ١٦ نصا معظمها يتصل بمحاججة المتكلمين . وسائرها ليست نقله ابن ابي حاتم عن ابيه وعمه ، فهي اذا ليست من (كتاب السنة واعتقاد الدين) كما لا يمكن القطع بانها من كتاب (الرد على الجهمية) . وان كان ذلك محتملا ـ لان الانصاري روى باسانيده الى ابي حاتم الرازي في ٦ مواضع والى ابي زرعة الرازي في موضعين، لكن هذه النصوص الثمانية ليست من رواية ابن ابي حاتم عنهما .

٩ ـ محمد بن اسحق السراج (ت ٣١٣هـ)

وهو امام حافظ ثقة صنف كتبا كثيرة منها مسند في الحديث وكتاب في التاريخ ، وقد بقيت اجزاء من مسنده وحديثه ، وفقد تاريخه(٤٥) .

وقد روى عنه الانصاري في ١٥ موضعا باسانيد مختلفة ، وليس بين الرواة عن السراج فيها واحد ممن عرف برواية (تاريخ السراج) عنه ، ولكن ذلك لا يعني ان سائرها روايات شفهية بل الراجح انها مكتوبة وقد صرح الانصاري في بعضها بانها مما املاه الشيوخ عليه .

١٠ ـ احمد بن محمد بن ياسين (ت ٣٣٤هـ)

وهو صاحب (تاريخ هراة) . وقد روى الانصاري عن احمد ابن محمد بن ياسين في ٩ مواضع من طرق مختلفة مما يشير الى انه لم ينقلها من كتاب او نسخة لابن ياسين .

١١ ـ محمد بن يعقوب الاصم (ت ٣٤٦ هـ)

وصفه الذهبي بقوله (الامام المفيد الثقة محدث المشرق) (٤٦) وقد طبقت شهرته الآفاق فكانت الرحلة اليه بنيسابور ، وقد صنف مسند الشافعي وجزءا في الحديث ووصلت الينا اوراق من حديثه وفوائده وامالية(٤٧) .

وقد روى عنه الانصاري في ٤٧ موضعا منها ٣٨ نصا بواسطة شيخه محمد بن موسى الصيرفي الذي صرح الانصاري بسماعه منه في نيسابور(٤٨) .

اما بقية النصوص فاوردها الانصاري من طرق مختلفة . وتجدر الاشارة الى ان الخطيب البغدادي اعتمد على محمد ابن موسى الصيرفي ايضا حيث اورد بواسطة ٢٥ رواية عن الاصم في (تاريخ بغداد) (٤٩) . ويلاحظ ان معظم ما رواه محمد بن موسى الصيرفي عن الاصم هو مما رواه الاصم عن شيخه محمد بن اسحق الصغاني ببغداد ومن الواضح ان علم الامصار والمدن الاسلامية المتباعدة امتزج نتيجة

---

(٣٧) المصدر السابق ٧٠٩ـ٧١٠ .
(٣٨) اكرم العمري ـ موارد الخطيب في تاريخ بغداد ص ١٨١ .
(٣٩) المصدر السابق ص ١٨١ .
(٤٠) الذهبي ـ تذكرة الحفاظ ٧٢٠ـ٧٢١ .
(٤١) نسبة الى عبدالله بن سعيد بن كلاب (ت بعد عام ٢٤٠هـ) وقد انتصر لعقائد السنة ، لكن ابن خزيمة يهاجمه بسبب الكلام . كما هاجمه من قبل الامام احمد بن حنبل (انظر د . علي سامي النشار ـ نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ٣٠١/١) .
(٤٢) المصدر السابق ٨٣٠ .
(٤٣) مخطوط في الظاهرية مجموع ١١ (سزكين ـ تاريخ التراث العربي ص ٤٤٩) .
(٤٤) تذكرة الحفاظ ٨٣٠ .
(٤٥) اكرم العمري ـ موارد الخطيب في تاريخ بغداد ٣٦١ .
(٤٦) تذكرة الحفاظ ٨٦٢ .
(٤٧) الالباني ـ فهرس مخطوطات الظاهرية ١٧١ .
(٤٨) ذم الكلام واهله ق ١٥ أ .
(٤٩) اكرم العمري ـ موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، الملحق رقم (٢) .

الرحلة في طلب العلم ومن ثم فان مادة الشيوخ البغداديين تظهر في مصنفات وفكر الانصاري رغم عدم افادته من الرحلة الى بغداد وذلك بواسطة شيوخه او شيوخهم الذين اخذوا عن علماء بغداد .

١٢ ـ ابو حاتم محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤ هـ)

وهو حافظ امام علامة كان على قضاء سمرقند ، طبع من مصنفاته (مشاهير علماء الامصار) و (معرفة المجروحين من المحدثين) وقد صنف في الحديث وعلم الرجال وكانت الرحلة اليه في وطنه سجستان ، لكنه اخرج منها لاختلافه مع علمائها لافكاره الحمد لله تعالى ولقوله . (النبوة : العلم والعمل) . وقد دافع عنه الذهبي وفسر قوله بما لا يخرجه عن اصول اهل السنة(٥٠) .

وقد روى عنه الانصاري في ٣٤ موضعا تتعلق بعلم الرجال ، وسائرها بهذا الاسناد (ابنا عبدالصمد بن محمد ابن محمد بن صالح ابنا ابي ابنا محمد بن حبان) ومرة واحدة بواسطة عبدالرحمن اخي عبدالصمد مما يرجح ان الانصاري ينقل من كتاب تملك حق روايته من عبدالصمد ومن ثم فلم يكن سوء راي يحيى بن عمار شيخ الانصاري في ابن حبان(٥١) مانعا للانصاري من ان يقتبس عن ابن حبان في كتابه .

١٣ ـ سليمان بن احمد بن ايوب الطبراني (ت ٣٦٠هـ)

وهو حافظ امام علامة صنف المعاجم الثلاثة ، الكبير والاوسط والصغير ، وقد وصل الينا منها المعجم الكبير ـ مخطوط ـ والمعجم الصغير ـ مطبوع ـ .

وقد روى عنه الانصاري في ١٩ موضعا باسانيده المختلفة اليه ، لكن ١١ رواية منها بواسطة (لقمان بن احمد البخاري ـ معمر بن احمد بن معمر) ومن الصعب نسبتها الى واحد من كتب الطبراني لكثرتها وضخامتها .

١٤ ـ عبدالله بن عدي الحافظ الجرجاني (ت ٣٦٥هـ)

امام حافظ كبير له تصانيف في علم الرجال ، وصل الينا كتابه (الكامل في ضعفاء الرجال) ـ مخطوط ـ وقد روى الانصاري عنه في ١٨ موضعا منها ١٣ نصا بواسطة (احمد بن محمد بن منصور بن العالي) مما يشير الى سماعه لهذه الروايات من نسخة او كتاب عند ابن العالي .

* * *

ومن استعراض هذه المصادر يتبين ان الانصاري كان يعتمد بالدرجة الاولى في تصنيف كتابه (ذم الكلام) على الروايات المتفرقة التي سمعها من شيوخه لكنه لم يقتصر عليها بل استخدم بعض المصنفات والنسخ المكتوبة التي تملك حق رواياتها، ويلاحظ ان معظم المصنفين الذين اعتمد على روايتهم ممن عرفوا بالاهتمام بالحديث وعلومه ومن الملتزمين بعقيدة السلف مما يدل على تخيره لمصادره بناء على موقفه العقدي . وكذلك من الواضح ان سائر مصادره المكتوبة مشرقية ولم يستخدم مصادر شامية او مصرية وان وقعت له روايات لعلماء من الشام ومصر كالوليد ابن مسلم الدمشقي والليث بن سعد المصري .

ولا شك ان بعض النصوص التي اقتبسها من كتب مفقودة ذات قيمة خاصة في تعريفنا بمحتوى الكتب المفقودة مثل كتاب (مناقب الشافعي) للساجي وتجدر الاشارة هنا الى ان الانصاري اختصر في بعض الموضوعات واحال فيها على بقية مؤلفاته التي استوفتها ، والكتب التي احال اليها هي (كتاب القواعد) حيث ذكر انه استقصى اقامة الدليل على بطلان قول من زعم ان القرآن يستغنى به عن السنة(٥٢) ، ومعارضة الحديث بالراي في باب اتباع السنة منه(٥٣) .

كما احال على كتابه (الفاروق) (٥٤) وكتابه (مناقب اهل الآثار) (٥٥) وكتابه (مناقب احمد بن حنبل) (٥٦) وكتابه (تكفير الجهمية) وفيه باب قتال الخوارج وكتابه (القدرية) (٥٧) .

فلا شك انه افاد من مؤلفاته هذه في بناء كتابه (ذم الكلام). ان استخدامه للكتب يظهر ايضا من تخريجه لبعض الاحاديث في كتب الحديث كالموطا والبخاري ومسلم (٥٨) كما صرح في عدة مواضع بان شيخه حدثه من اصل مكتوب(٥٩) او املاء(٦٠) . ومما يشير الى اصوله المكتوبة قوله (اخبرني في كتابه) (٦١) و (كتب به الي حمزة بن يوسف السهمي بجرجان) (٦٢) و (رايت بخط) (٦٣) و (كتب الي احمد بن الحسين البيهقي) (٦٤) .

وهكذا فقد افاد من مكاتباته مع علماء عصره في بناء مؤلفه (ذم الكلام واهله) .

٢ ـ منهج الانصاري في (ذم الكلام)

نظم الانصاري القسم الاول من كتابه على اساس الموضوعات فوضع كل موضوع في باب . اما الباب الذي استعرض فيه موقف الصحابة والتابعين ومن بعدهم حتى عصره من الكلام والجدل فقد رتبه على الطبقات كما صرح بذلك(٦٥) . فلا شك انه احتذى اساليب التنظيم المعروفة عند المصنفين آنذاك ، والتي اخذوها عن الاجيال السابقة من المؤلفين .

وقد ساق سائر مرويات الكتاب باسانيده الكاملة على طريقة المحدثين في التصنيف . وقد يجمع الاسانيد عند ورود الرواية من طرق مختلفة فاذا فعل ذلك فانه يبين صاحب اللفظ الذي اختار نص روايته دون بقية الطرق . وعندما تتعدد طرق الحديث او الرواية فانه يسوقها من الطرق المختلفة تقوية لها وتعضيدا . وتظهر اضافاته على النقول والاقتباسات من خلال تعريفه باسماء من وردوا في الاسانيد بكناهم فقط(٦٦) او التعريف

(٥٠) تذكرة الحفاظ ٩٢٢ .
(٥١) المصدر السابق ٩٢١

(٥٢) ذم الكلام ق ٢٨ ب
(٥٣) المصدر السابق .
(٥٤) المصدر السابق ق ٣٨ أ .
(٥٥) المصدر السابق .
(٥٦) المصدر السابق ق ١٢٠ ب .
(٥٧) المصدر السابق ق١٤٤أ/ق٧٨ب .
(٥٨) المصدر السابق ق١٥ب/١٢١أ/٧٠ب .
(٥٩) المصدر السابق ق ٤٤أ/٤٤ب/٤٥أ .
(٦٠) المصدر السابق ق ٤٨ أ .
(٦١) المصدر السابق ق١٠٢ب/ق٨٣ أ /ق٢٠ أ .
(٦٢) المصدر السابق ق ١٠٣ ب .
(٦٣) المصدر السابق ق١٠٤ب/ق١٠٢أ .
(٦٤) المصدر السابق ق ٨٧ أ
(٦٥) المصدر السابق ق ٨٢ أ .
(٦٦) المصدر السابق ق ١٨ أ .

بمن وردوا بذكر اسمهم الاول فقط فيذكر اسماء آبائهم(٦٧) . او بالتعريف بالمبهم كان يرد في الاسناد رجل دون تسميته فيسميه الانصاري ولا شك انه يدلل بذلك على وقوفه على الرواية من طريق آخر او بقرائن اخرى(٦٨) وينبه الانصاري على ما يقع في الاسناد من اخطاء بتغيير اسم احد الرواة (٦٩) . او وهم في الاسناد(٧٠) ، وقد يبين رأيه في رجال الاسناد من حيث التوثيق والتجريح ويبدي اعجابه ببعضهم(٧١) .

اما بالنسبة لمتون الاحاديث والروايات فقد بين الاختلافات في الالفاظ بين متون الحديث المروى من طرق متعددة (٧٢) . كما اشار الى غرابة بعض الاحاديث(٧٣) . وقد يبين علل الحديث(٧٤)،

(٦٧) المصدر السابق ٤٩ ب .
(٦٨) المصدر السابق ١٠٢ ب ، ٨٢ أ .
(٦٩) المصدر السابق ٨٠ أ .
(٧٠) المصدر السابق ١٢ ب .
(٧١) المصدر السابق ١٤ أ ، ٥٢ ب ، ٧٠ أ .
(٧٢) المصدر السابق ق ٧١ أ .
(٧٣) المصدر السابق ٦٣ أ .
(٧٤) المصدر السابق ٤١ أ .

او يذكر صحته معتمدا على تصحيح ائمة الحديث السابقين له(٧٥). او يوضح معنى الرواية(٧٦) . او يكشف ما يقع في الحديث من اضطراب ومخالفة لروايات الثقات(٧٧) .

ورغم ان الانصاري تابع المحدثين في منهجهم التاليفي فترك النصوص تعبر عن مراده مرتبا اياها تحت عناوين داله ، لكنه أحيانا يطلق لقلمه العنان ليعبر عما يجيش في نفسه من آراء وعواطف وخاصة عندما يتعرض للمخالفين(٧٨) ، والحق انه يعبر عن ذلك باسلوب بليغ محكم ولغة عالية تدل على تمكنه من العربية وعلو باعه في آدابها . وختاما فان عصر الانصاري يمثل المرحلة الاخيرة في تالق الحديث وعلومه حيث برز فيه خاتمة المحدثين العظام والجهابذة النقاد ، ثم خفت صوتهم وضعف علماؤهم حتى تجدد نشاطهم على يد رجال القرن الثامن الموسوعيين مثل ابن تيمية وابن القيم والذهبي ثم ابن حجر العسقلاني في القرن التاسع الهجري .

(٧٥) المصدر السابق ٤٧ ب
(٧٦) المصدر السابق ٣٣ ب .
(٧٧) المصدر السابق ٢٤ أ .
(٧٨) المصدر السابق ق١٤٤/١٤٩أ - ب .